منيرالكمنتربن الكيلاني *

الجامع الأعظم: الزيتونة

في القرن الرابع عشر الهجري

(الصفحات ١٤٩- ١٦٠)

ملخّص

هذا البيت العتيق هو كعبة القطرالأفريقي، ومطلع فجره الصادق الحقيقي، وإن كانت شهرته تغني الكاتب عن التعريف بأطواره؛ إذ كتب التاريخ مشحونة بما يدل عما منحه الله من السرالساري والمورد المعين الجاري، ولا غرو فبعض بقاع الأرض أيمن من بعض، والحكمة لمن عمّ حكمه وملكوته الطول والعرض.

ولكنه مع هذه الشهرة التي أشرنا إليها، وأخذنا بخصرالاختصاراعتمادًا عليها، عنّ لي أن يكون لموضوعنا هذا جملة من أخباره وتقلبات أطواره، تكون على جبينه إكليلاً، وترد طرف حسوده خاسئًا كليلا.

الذي تضافرت عليه كتب المؤرخين، أن أول من ابتدأ بناء جامع الزيتونة الأمير حسان بن نعمان الغساني، الداخل لأفريقيا سنة ٧٩هـ/٧٥٨م، ولما تولى زيادة الله بن الأغلب الإمارة بالقيروان، أحدث به أبنية فخمة، فصارمن أحسن الجوامع

---

* - كاتب تونسي.

القائمة على أساطين من المرمروالرخام سنة ٢٥٥ هـ كما دل عليه لفظ (اعلم) المرتسم على أحد أقواسه. ثم من ذلك العهد، وقعت فيه زيادات وترميمات، إلى أن صار-الآن -كما يراه الزائرضخم البناء، متسع الرحب والفناء، أدام الله عمرانه.

وأول ما عرف من هذا البيت، صومعته الشهيرة الموجودة من قبل دخول العرب أفريقيا، قال صاحب المؤنس: «كان العرب ينزلون بإزاء صومعته، ويأنسون براهب كان يتعبد بها، حتى كانوا يقولون: هذه البقعة تؤنس». قال المؤرخ وحينئذ، فلهذا البيت السابق الفضل بصلاة الصدرالأول، ثم لما اتخذ المحل مسجدًا إسلاميًا، جعلت الصومعة محل النداء والأذان للصلاة، ولم تزل منذ ذلك العهد القديم، قائمة على أصولها الراسخة، وإن وقعت بها تجديدات وإصلاحات.

عناية أهل تونس بالجامع الأعظم الزيتونة!

كانت القيروان منذ الفتح الإسلامي عاصمة الإمارة للبلاد التونسية، وكان جامعها الذي اختطه عقبة بن نافع رضى الله عنه من أكبرالمعاهد التي يؤمها طلاب العلم من نواح مختلفة، ومصدرًا للفتاوى والأحكام. تخرج به أكابرالفقهاء الذين بلغوا درجة الاستنباط أو الترجيح بين الآراء، وألفوا، فأحكموا صناعة التأليف.

وفي أواخرالمائة السادسة انتقل كرسي الإمارة إلى تونس، حين اختارها عبد المؤمن بن علي وخلفاؤه مقرًا للإمارة، وأصبحت الحركة العلمية تنمو في هذه المدينة، إلى أن صارجامع الزيتونة محط رحال طلاب العلم بدل جامع القيروان. وأخذ جامع الزيتونة يغالب جامع القيروان، وأخذ اسمه يتردد أكثرمما كان. وأصبح لأهل القطرالتونسي (عمره الله تعالى) تعلق شديد بهذا البيت العتيق، وتشبث عظيم بعرصاته فإذا أطلقوا الجامع الأعظم فمرادهم جامع الزيتونة، كما نجده مرجعًا لغالب أوقافهم، ولهم في ذلك المنازع الغريبة، فمنهم من يوقف على

الإمام، ومنهم من يوقف على القراء،أو المؤذنين، ومنهم من يوقف على نفس البيت، ومنهم من يوقف على الحَمام الوحشي الذي يأوي إليه.

وليس هذا الاهتمام وتلك العناية مقصورة على العامة، بل هي مشتركة بينهم وبين الخاصة من الملوك، وأعيان الدولة، والمسئولين، فقد كانوا ينتخبون من العلماء والأشراف والصالحين لمحرابه ومنبره، وخصصوا له ثلاثة من الأئمة، فأولهم لخطبة الجمعة والعيدين، وله القيام بما يسره الله ـ تعالى ـ من الصلوات الخمس، والثانى معد للصلوات الخمس، وله داريستحق السكنى فيها قرب الجامع. والثالث معد للنيابة عن الإمامين على وجه الاحتياط. وهو معززبإمام رابع، لإقامة صلاة التراويح في شهررمضان المبارك. والعامة والخاصة لا يرضون لمحراب الجامع ومنبره، إلا من تأهل لذلك علمًا، وخلقًا، واستقامة. وقد صنف الشيخ محمد مخلوف قائمة فيمن تولى الإمارة والخطابة بالجامع الأعظم هذا إلى جانب اهتمامهم بقراءة الأوراد القرآنية، والصلوات على خيرالبرية، وقراءة الكتب الحديثية، في أوقات مختلفة وربما يكون لها بين الظهرين دوي كدوي النحل. وقد تبلغ الحلقات زهاء خمسين حلقة، يربو عدد قرائها على ثلاثمائة قارئ، يرطبون ألسنتهم بتلاوة القرآن والذكر، وتحضره أمم لا تحصى على اختلاف طبقاتهم.

أما موكب ختم الحديث الشريف في رمضان المبارك، فهو مثل موكب المولد النبوي الشريف له شأن عظيم بالجامع الأعظم ... أما الكيفية الجارية في هذا اليوم، وذلك أنه بعد صلاة العصرمن السادس والعشرين من شهررمضان، يبتدئ الإمام الثالث برواية الشفاء للقاضي عياض، ثم يتلوه الإمام الثانى برواية صحيح مسلم، ثم يختم الإمام الأول برواية صحيح البخاري، وذلك بمحضرأميرالعصر ووزرائه، والعلماء والجامع غاصٌ على اتساعه بالمسلمين. وفي الليل يقع ختم القرآن الكريم بصلاة التروايح، والناس يزدحمون على أبوابه، زاده الله فضلا على فضل، وأدام على المسلمين التمسك بحبله المتين إلى يوم الدين.

جامع الزيتونة وأثره في المجتمع التونسي والمغربي في القرن الرابع عشر الهجري

إذا التفتنا لهذا الغرض ألفيناه طويل الذيل، طامى السيل، والمشاهدة بالعيان أصح من كل بيان؛ إذ لا يعزب عن علم أحد أن المدارس الجامعة الإسلامية بالقارة الأفريقية ثلاث، وهي **الجامع الأزهر** بمصر، و**جامع الزيتونة** بتونس،و **جامع القرويين** بفاس، وأن جامع الزيتونة كما كان واسطة هذا العقد، من حيث موقعه الجغرافي، فله أيضًا المنزلة السامية في جميع العلوم التي قام بتدريسها عبر القرون الطويلة، ومن شواهد ذلك ما يبرهن عليه الوجود الخارجي، من فحول العلماء الذين لا يُشق غبارهم، وتآليفهم التي لم يُنسج على منوالها.

ظل التدريس بالجامع الأعظم على هيأته الأولى دون حدوث أى تغييريذكر على نظامه التعليمي، إلى عهد المشيرأحمد باشا أميرتونس، في منتصف القرن الثاني عشرالهجري، فوجه عنايته إلى ترقية شأن التعليم، و إنبات طلاب علم نباتًا حسنًا، فكان من تدبيرهذا الأمير، أن قصد إلى تنظيم التعليم بجامع الزيتونة، فأمر بمرسوم في سنة **١٢٥٨ هـ، ١٨٤٨** م، وتلي في يوم مشهود، ورسم في صحيفة محاطة بإطار، وكتب بمذاب الذهب على لوح بهيج، وعلق داخل باب من أبواب الجامع يسمى "باب الشفاء" ويقضي هذا المرسوم بانتخاب خمسة عشرعالمًا من علماء الحنفية، ومثلهم من المالكية، يقرأ كل واحد منهم درسين مما يطلب منه من العلوم، وفي أي وقت تيسرعدا يومي الخميس والجمعة، وأجري لكل واحد منهم مرتب شهري قدره ستون ريالا، ومن تخلف عن التدريس لغيرعذر، لا يستحق المرتب. و إذا فقد أحد هؤلاء المدرسين، انتخب نظارالجامع بدله أعلم أهل الموجودين في القطر، و إذا اشتبه عليهم الحال فيمن يستحق ولاية التدريس، عقدوا مسابقة بين من يرغبون في إحرازها، ومن وقع عليه الاختيارفصل في تعيينه

المشايخ النظار، وبعثوا قرارهم إلى حضرة الباي؛ ليصدر مرسومًا في تعيينه.

المشايخ النظار: والمشايخ النظار، هم أربعة من كبار العلماء رئيس الإفتاء الحنفي، ورئيس الإفتاء المالكي، والقاضي الحنفي، والقاضي المالكي، ينظرون في شئون المعهد. ويرأس المجلس شيخ الإسلام (الحنفي)، يجتمعون بمكان معد لهم من الجامع، في صبيحة السبت من كل أسبوع، ثم يتناوبون الحضور بقية الأيام، فيجيء، كل واحد منهم في يوم لإجراء ما قرروه عند اجتماعهم. ويساعد المشايخ النظار، اثنان من المدرسين، يحضران جلسات المشايخ، ولهما إبداء ملاحظات واقتراحات، لكنها غير ملزمة، وينص القانون أن للناظر أن يختبر أحوال المدرسين، بنفسه، فيجلس قريبًا من المدرس، بحيث يسمع إلقاءه حتى تتميز عنده مراتب المدرسين.

كانت هذه المرحلة بداية عهد جديد للجامع الأعظم: الزيتونة، وتنظيم العلوم به. وقد أثمرت هذه الإصلاحات في هذا العهد، وازداد توجه الناس إلى الجامع الأعظم، وتوافد عليه أبناء المسلمين من القطر التونسي، وخارجه، ينهلون من معينه، ويزدادون علمًا، وهدىً، وبصيرة. فظهر في عهد النظام الجديد نبغاء في علوم الدين، واللغة العربية، وأخذت تونس في حياة مدنية نامية، وصارت في مقدمة الشعوب التي تيقظت لما تحتاج إليه من إصلاح. ظهر ذلك واضحًا في قصائد الشعراء والأدباء، في ذلك الوقت، منهم الشاعر المفلق المفتي المالكي الشيخ محمود قبادو التونسي، المتوفى سنة ١٢٨٠ هـ، حيث يقول في الأمم الغربية."

لقد قتلوا دنيـــا الحياتيــن خبرة فمن لم يساهمهم فقد طاش سهمه

و من نبغاء ذلك العهد العالم الكبير الشيخ أحمد بن أبي الضياف المؤرخ التونسي المشهور صاحب كتاب *إتحاف أهل الزمان* توفي سنة ١٢٩١ هـ/ ١٨٧٤ م، وهو أول من كتب باللغة العربية للدولة العثمانية، وجعل اللغة العربية اللسان الرسمي للدولة، بعد أن كانت المرسلات تحرر باللغة التركية، ثم خلفه على ذلك

الوزيرالعالم النحرير، الشيخ محمدعبد العزيزبوعتور، ولد سنة ١٢٤٠ هـ وتوفي سنة ١٣٢٥ هـ

واستمرالأمرعلى ذلك الحال حتى جاء عهد الأميرمحمد الصادق باي، ووزيره المصلح خيرالدين باشا توفي سنة ١٣٠٨ هـ صاحب كتاب *أقوم المسالك في أحوال الممالك* . فأدخل هذا الوزيرعلى نظام التعليم بالجامع الأعظم، تعديلات وإضافات ذات شأن، ووضع مناهج سارت به إلى الأمام مرحلة كبيرة، فأمر بزيادات في مرتب المدرسين، ونظم طبقة ثانية من المدرسين بالجامع: ستة من الحنيفة ومثلهم من المالكية. وكان هذا الوزيرمهتمًا بأمرجامع الزيتونة، ويتردد عليه، ويشهد حلقات الدروس بنفسه؛ مما جعل رجال الدولة يحذون حذوه في العناية بهذا المعهد الإسلامي، فكان داعية إقبال الناس وتنافسهم في العلوم، كما رتب في ذلك قانونًا أصدره سنة ١٢٩٦ هـ/١٨٧٥م.

ومازالت الإصلاحات التعليمية تتوالى في هذا الجامع العتيق، في مراحل متعددة لا تتوقف عند حد. ففي سنة ١٣١٠ هـ و١٣١٢ هـ دخل على النظام الأول شيء من التغييروالتنقيح. وفي سنة ١٣٢٩ هـ عقدت الحكومة لجنة من كبارالعلماء، وبعض رجال الدولة للنظرفيما تحتاج إليه مناهج التعليم، من تهذيب، وإصلاح، فصارالتعليم بما قررته اللجنة أقرب إلى التعليم المحاط بالنظم المدرسية من كل جانب وأضيفت طبقة ثالثة في طبقات المدرسين، وفيها خمسون مدرسًا، فأصبح بذلك عدد المدرسين ثلاثين مدرسًا من الطبقة الأولى، واثنى عشرمدرسًا من الطبقة الثانية، وخمسين مدرسًا من الطبقة الثالثة، ويضاف إليهم مدرسان مختصان بدرس القراءات والتجويد، كما ازداد أيضًا عدد الطلاب ازديادًا كبيرًا.

ومن نبغاء هذه المرحلة في الجامع الأعظم، الذين زانوا البلاد علمًا وفضلاً، الشيخ عمربن الشيخ (١٢٣٩ هـ-١٣٢٩ هـ) حضردروسه الأستاذ الإمام الشيخ محمد

عبده، في زيارته الأولى لتونس سنة ١٣٠٠ هـ وأعجب بقيمة الأستاذ، ودرسه أيما إعجاب. وكان الأستاذ في طليعة الزيتونيين الذين اعتمد عليهم الوزيرخيرالدين باشا في برنامجه الإصلاحي لنظام التعليم في جامع الأعظم. والشيخ سالم بوحاجب (١٢٤٣- ١٣٤٣هـ/ ١٨٢٧- ١٩٢٤م) انحصرجامع الزيتونة في تلامذته، وتلاميذ تلامذته، فلاتجد فيه طالبًا إلا والشيخ عليه مشيخة، إما مباشرة و إما بواسطة، فالزيتونيون عيال عليه، ومرجعهم في العلم إليه، ودام تدريسه بالزيتونة في ثلاثين سنة، وكان ذا نزعة تجديدية واضحة، لهذا وجه فيه الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، العالم الذي يسيرمعه على نهج واحد، فانقلب من تونس معجبًا بالشيخ سالم بوحاجب. والشيخ محمد النجار: أبو عبد الله محمد بن عثمان (١٢٤٧-١٣٣١ هـ) والشيخ صالح الشريف: (١٢٨٥-١٣٣٨هـ) والشيخ محمد النخلي القيرواني رحمه الله توفي بتونس سنة ١٣٤٢ هـ والشيخ محمود بن الخوجة: تولى النظارة العلمية الأعظم، وتسلم خطة الإفتاء، ثم تولى بعدها مشيخة الإسلام عام ١٣١٨ هـ كانت وفاته عام ١٣٢٩ هـ

الجامع الأعظم الزيتونة في عصره الذهبي:

توالت الإصلاحات على الجامع الأعظم طوال السنوات التي ذكرتها، والتعليم في تطور، وازدهار، ونمو عم أرجاء البلاد التونسية فلاتكاد تجدد إمامًا ولا خطيبًا ولا محاضرًا في مسجد من مساجد القطرالتونسي إلا وهو ثمرة من ثمارجامع الزيتونة، بل تجاوزخيره ونفعه خارج البلاد التونسية كالمغرب الأقصى والصحراء وطرابلس الغرب والجزائروموريتانيا وغيرها.

ودام الأمر كذلك حتى سنة ١٣٦٤ هـ/ ١٩٤٥ صدرالأمرالملكي بتعيين الإمام العلامة الشيخ **محمد الطاهربن عاشور**(توفي سنة ١٣٩٣ /هـ١٩٧٣م) صاحب موسوعة التفسير *التحرير والتنوير* وغيرها من المؤلفات القيمة شيخًا للجامع الأعظم

الزيتونة للمرة الثانية. وصرح له بأنه يعتمد عليه في إصلاح حال التعليم بجامع الزيتونة وترقيته، فقام هذه الشيخ بهذه الوظيفة خيرقيام وأدخل إصلاحات قيمة على هذا المعهد الشامخ، وجعله يعيش عصرًا ذهبيًا وأعطى التعليم الزيتوني دفعة قوية على مختلف المستويات، فباشر إدارتها بهمة ونشاط، وسار بهذا المعهد حتى بلغ به القمة في الأزدهار، حتى قيل إنه **زعيم حركة الإصلاح وقائد النضال والكفاح وبطل الثورة الفكرية التي فتحت العقول والأذهان**. وهو أول زعيم تونسي دعا إلى التعليم الإجباري، وتنظيم حملة رسمية لمحو الأمية. ولعل الفكرة نبتت معه منذ ملاقاته للشيخ محمد عبده، وتشبعه بأفكاره الأصلاحية سنة ١٩٢٣. (ملاحظة: توفي محمد عبده عام ١٩٠٥م /١٣٢٣هـ)

أهم إنجازات الشيخ الإصلاحية بالجامع الأعظم:

حمل الشيخ لواء الإصلاح، فابتداء بإصلاح التعليم إذ هو القاعدة الأساسية التي ترتكزعليها مقومات النهضة الفكرية والحضارية لأي أمة أو مجتمع، وقد شملت هذه الإصلاحات مجالات متعددة منها إصلاحات ذات صبغة إدارية ومنها ذات صبغة علمية وأخرى ذات صبغة تربوية.

إصلاحات ذات صبغة إدارية: أحدث الشيخ إصلاحات ذات شأن في تنظيم التعليم الزيتوني عند توليه سنة ١٩٤٥م، منها إحداث نظام التفقد و إرشاد شيوخ الزيتونة وتوجيههم إلى إحداث المناهج والأساليب التربوية سنة ١٩٤٦م. وفي نفس السنة تم إجراء امتحان شهادة المرحلة الأولى من التعليم الثانوي (الأهلية) في أربعة مراكز داخل البلاد وهي صفاقس، وقفصة والقيروان وسوسة. كما تم على يديه إحداث فرعين للتعليم الزيتوني بتونس وهما الجامع المراد والجامع الحسيني.

وفي داخل البلاد التونسية تم إنشاء **فروع المهدية، والمنستير، ثم باجة وبنزرت،**

ومدنين. ولقد أقبل الناس على هذه المعاهد وصفاقس وتوزروقفصة على غرار الجامع الأزهر كما أخبربذلك صديقه **الشيخ محمد الخضرحسين**، ولكن يبدو أن الظروف لم تسمح بتحقيق هذه الأمنية الغالية التي حرمت منها البلاد التونسية.

وقد ازدهرالتعليم بالجامع الأعظم في عهد الشيخ حتى بلغ عدد فروع الزيتونة إلى سبعة وعشرين معهدًا علميًا. ولم يكن التعليم الزيتوني مقتصرًا على الذكور، بل شمل الإناث أيضًا وخصص فرع للبنات الزيتونيات بتونس.

وتجاوزهذا الازدهارالإصلاحي خارج القطرالتونسي فأحدث الشيخ فرعين زيتونيين بالجزائرالشقيقة بقسنطينة. ونما عدد الطلاب المنتسبين إلى جامع الزيتونة نموًا مطردًا، فمن ثلاثة آلاف إلى خمسة وعشرين ألفًا، كما ارتفع عدد الشيوخ المدرسين تبعًا لذلك. ونظمت الامتحانات وضبطت ضبطًا محكمًا، وصارت لجان امتحانات تشرف على الشهادات العلمية وتجري في المواعيد المضبوطة وبروح مسئولة عالية.

ووقع تطويرالتعليم الزيتوني إلى شعبتين: الأولى الشعبة الأصلية: وتنبني الدراسة فيها على المواد الشرعية، كالفقه، والتفسير، والحديث، مع الأخذ بعلوم الحساب، والفلسفة، والتاريخ، والجغرافيا. والثانية الشعبة العصرية: تلم بالعلوم الشرعية، مع الأخذ الكثيربالعلوم الرياضية، والطبيعية، والفلسفية، والتاريخ، واللغات كالإنجليزية.

وفي هذه المدة، قام الشيخ بزيارات لفروع الجامع الأعظم، كزيارته لفرعي صفاقس، والقيروان، وتفقد أحوال الطلبة ومساكنهم وجعل إدارة المدارس تتولى تنظيم سكن الطلبة، ودعا إلى تكوين لجنة تشرف على بناء حي زيتوني، جعل رئاستها لشيخ الإسلام المالكي محمد عبد العزيزجعيط، وتحقق المشروع وتم بالفعل إقامة مأوى عظيم مستكمل لوسائل الصحة والراحة، وهو المعروف اليوم بابن شرف.

إصلاحات ذات صبغة علمية :

للجامع الأعظم الزيتونة إسهامه العلمي، وعمق مداه الحضاري. فهو الحصن المنيع والدرع الواقي، حافظ على مقدسات البلاد من خطرالاستعماروغزوه الثقافي. قال الشيخ في هذا الصدد: «إن تعليم هذا المعهد هو الحافظ على الأمة علوم دينها، الذي به فوزها في حياة العاجلة، وسعادتها في الحياة الأبدية، والحافظ عليها علوم لغتها، التي هي ضمان جامعتها، ومظهرمفاخرها وعزتها، لذلك دعت الحاجة إلى إصلاح التعليم الزيتوني في المناهج، والأساليب والطرق.

وقد شملت عناية الشيخ ابن عاشور إصلاح الكتب الدراسية وأساليب التدريس، ومعاهد التعليم، واهتمت لجان من شيوخ الزيتونة بتشجيع منه بهذا الغرض ونظرت إلى الكتب الدراسية على مختلف مستوياتها، وعمد الشيخ إلى استبدال كتب كثيرة كانت منذ عصورماضية تدرس، وصبغ عليها قدم الزمان صبغة احترام وقداسة موهومة، وقد اشتملت الكتب الجديدة على تمارين، حتى تقوي ملكة الطالب بمعالجة القواعد العلمية معالجة تقوم مقام السليقة.

وفي عهده وقع الاهتمام بنوع من العلوم والفنون كان الاعتناء بها محدودًا، وهي الأنشاء والتاريخ، والأدب، كما وقع الاهتمام بالعلوم الطبيعية وخصائص الأشياء وعلوم الحساب. وقد روعي في المرحلة العلمية العالية من التعليم الزيتوني التبحرفي أقسام التخصص، فروعي في القسم الشرعي معرفة الأحكام الشرعية وأدلتها، وأصول العقيدة ومقاصد الشريعة، وأسرارتنزيل وتقوية ملكة الترجيح، ومعرفة طرق الاستدلال ولذلك اختيرت كتب أعلام الشريعة.

وروعي في القسم الأدبي معرفة الأدب الرفيع وتربية الذوق واتساع دائرة التفكير، وتقوية ملكة النقد، وتفهم اللغة ودقائق التعبير. وفي المعاهد التعليم الزيتوني بدأ الحديث عن الوسائل التعليمية المتنوعة ذات الجدوى الكبيرة في التعليم، فألحقت السبورة للتوضيح والشرح في بعض الأقسام.

إصلاحات ذات صبغة تربوية:

وقد حرص الشيخ ابن عاشورعلى خاصيتي التعليم الزيتوني: الصبغة الشرعية والسمة العربية. وللوصول إلى هذا الهدف لا بد من تخصيص كتب دراسية شهد لها العلماء بغزارة العلم، و إحكام الصنعة، وتنمية الملكات في التحرير؛ ليخرج من الزيتونة العالم المقتدرعلى الغوص فيما درس من مسائل، وتمحيصها، ونقدها. ولتحقيق هذه الأهداف السامية دعا الشيخ محمد الطاهرابن عاشورإلى التقليل من الألقاء، والإكثارمن الأشغال التطبيقية، حتى تتربى للطالب ملكة بها يستقل في الفهم، ويعول على نفسه في تحصيل ثقافته العامة.

وحث شيوخ الزيتونة على استفراغ الجهد في التأليف العلمي، فقال: «و إصلاح التأليف هو الخطوة الأولى بل هو نصف المسافة من إصلاح العلوم، فما العلوم إلا معاني التأليف، و إنها لاترجو تقدمًا ما دامت محبوسة في تآليفها القديمة، التي وقفت بها عند القديم منها منذ ستمائة سنة، كما حث المدرسين على نقد الأساليب الدراسية واختيارأحسنها أثناء الدرس، ومراعاة تربية الملكة بدل شحن العقل بمعلومات كثيرة قد لا يحسن الطالب التصرف فيها.

و إذا تدبرنا هذه الآراء نجدها تتجسم مع روح التربية الحديثة، التي تعول على نشاط الطالب واستنتاجه للمعارف بنفسه فتلك أدعى إلى الرسوخ وأقدرعلى الإفادة.

وعند فجرالاستقلال سنة ١٣٧٤هـ/١٩٥٦م، تكونت الجامعة الزيتونة متولدة عن المعهد العظيم، وانتقل التدريس من الجامع العتيق إلى الجامعة الزيتونة، وأسندت إلى الشيخ ابن عاشورریاستها.

الخلاصة:

وهكذا، كان الجامع الأعظم الزيتونة أسبق المعاهد التعليمية مولدًا، وأقدمها في التاريخ عهدًا، وقد حمل مشعل الثقافة الإسلامية اثني عشرقرنًا ونصف القرن، بلا انقطاع ولا انفصال، تجرد في خلالها لدراسة العلوم، وظل على مدى العصور منارًا وهاجًا للتعليم، والبحث، والاستنباط، فتخرج به الفقيه، والأديب واللغوي وتفرع من دوحته الزيتونية المباركة أغصان علم وفلسفة زانوا الثقافة البشرية في المغرب والمشرق.

وفي العصرالحديث، أي القرن الرابع عشرالهجري، وقف الجامع الأعظم الزيتونة حارسًا أمينًا، وحصنًا منيعًا، ودرعًا واقية وصرحًا شامخًا، أمام الغزو الثقافي والفكري، الفرنسي والغربي، وحفظ على الأمة التونسية والمغاربية هويتها، وعروبتها و إسلامها وأصبح أكبر جامعة إسلامية عرفها المغرب العربي بأسره. فتخرج فيها نبغاء عاملون، وأفذاذ مصلحون أناروا وجه تونس والمغرب العربي، وكانت لهم الصدراة المقبولة بعدئذ في الكفاح السياسي والكلمةالمسموعة والوزن المحترم. فكان منهم كبارالوزراء وعظماء الكتاب ومشاهيرالحكام ورجال الصحافة والاقتصاد. وعليه قامت الدولة التونسية المعاصرة بعد استقلالها من الاحتلال الفرنسي. وما من عائلة تونسية أو جزائرية ألا ولها صلة وثيقة بجامع الزيتونة فقد يكون أحد أفرادها أو أقربائها درس بالزيتونة أو أحد الخريجين عليه. أدام الله تعالى عمرانه، ونفعه وبركته على أهل تونس وعلى المسلمين أجمعين.